أحبُّوا ذواتهم محبة ضارة[1]

هناك أشـــخاص فيما يريدون أن يبنوا أنفســـهم، يهدمونها! وإذ يعملون على تحقيق ذواتهم، يفقـدونهـا! إنهم أولئـك الـذين يحبون ذواتهم محبـة خاطئة تكون ضارة بهم فمَن هم؟ وما نوعية أخطائهم؟

* منهم مَن يحب ذاته، بأن يجعلها تعيش باســـتمرار في أجواء من اللذة الخـاطئـة، لـذة الحواس ولـذة الجســـد ورفـاهيتـه... هـذه اللـذة التي من أخطائها أنها تقود إلى الشـــهوة وإلى الخطيئة. وربما تؤدي إلى تدنيس النفس والجســـد، وإلى الانغماس في اللهو. وبهذا كله يضـــيّع الإنســـان نفســـه. ولا يعرف أيضًـــا قيمة وقته فيضـــيعه، بينما الوقت هو جزء من حياته... وهكذا يمتهن حياته دون أن يدري!

* وهناك مَن لا يلذذ نفســـه بالحواس، وإنما بالفكر والفكر مجاله أوســـع بكثير، فما لا يدركه في الواقع بالحواس أو بالجســـد، يكفيه أن يغمض عينيه، ويؤلّف حكايات وقصصًا وخيالًا وأحلام يقظة ويرى أنه يُمتِّع نفسه بكل هذا ويقول في فكره: ســـوف أصـــير وأكون، أو ســـوف أفعل وأفعل. وقد يغرق في مثل هذه الأفكار أوقاتًا طويلة. ثم يستيقظ منها على فراغ وضياع لم يستفد منه شيئًا.

* نوع آخر من الناس يريد أن يبني نفسه بالعظمة التي تأخذ مظهرًا خارجيًا غير حقيقي وغير روحي، لا يبنيهم بل يهدمهم. أمثال هؤلاء قد يقعون في الغرور، وفي التباهي والفخر، مما لا يقبله الناس منهم. وقد يقعون أيضًـــا في حب المظاهر، وحب مديح الناس، وإن لم يجدوا مَن يمدحهم، يمدحون هم أنفســـهم ويشـــرحون مواقف تمجدهم! بينما الناس يحبون الودعاء الـذين مهمـا بلغوا من علو، يعيشـــون في إنكـار الـذات. أمَّـا العظمـة الحقيقية فهي غير ذلك كله، هي في قوة الشـــخصـــية وفي فضـــائلها في قدراتها ومواهبها.

ولكن الـذين يظنون أنهم يبنون ذواتهم بعظمـة زائفـة، فـإنهم يـذكروننـا

---

[1] مقال لقداسة البابا شنوده الثالث نشر في جريدة الأهرام بتاريخ 13-1-2008م

بقول أحد الآباء الروحيين: "مَن سعى وراء الكرامة، هربت منه. ومَن هرب منها بمعرفة، سعت إليه وأرشدت الكل إليه"...

* إن أسوأ ما في محبة العظمة، ما يصل إليه البعض من البارانويا، أي جنون العظمة، حيث يظن مَن يقع في هذا الشعور أنه أعظم الكل، وليس مَن ينافسه في عظمته! ويتخيَّل في نفسه ما ليس فيه من صفات العلو والسمو، ويطلب أن يعامله الجميع بما يليق بعظمته!! وهكذا يخسر ذاته فيما يظن أنه يمجدها...

* والذي يريد أن يبني نفسه بالعظمة، ربما يقدم نفسه إلى مناصب ووظائف ليس هو مؤهلًا لها. وإن نجح في الوصول إلى ذلك، تظهر الممارسة ضعفه، ويجلب على نفسه نقدًا ما كان أغناه عنه، ويحط مِن قدر نفسه عمليًا، فيما أراد أن يعليها...

* يوجد أيضًا مَن يحاولون أن يبنوا ذواتهم عن طريق ما يتخيلونه زعامة أو بطولة ترتبط بشيء من العدوانية، في صراع وعراك تجدهم كشعلة من نار، في حماس مستمر، للنقد والهدم والتحطيم!! دون أن يقوموا بأي عمل إيجابي بنَّاء ... فلا تسمع من أفواههم سوى عبارة: "هذا خطأ، وهذا مخطئ". ولذتهم هي في انتقاد الكبار ومثلهم الأعلى هو (طرزان) الذي يقفز على الجبال، ويضرب هذا وذاك شأن الفتيان الذين يحبون الأفلام السينمائية التي فيها ضرب نار، وقلب عربات، وقتل ... ويسمونها أفلام البطولات.

أولئك لهم الطبع الناري، دائم الهجوم، دائم العدوان، دائم الغضب والاقتحام. يفرح بأنه أحرج فلانًا من الناس، وانتصر وغلب، وفي محاولته تحطيم الآخرين يرى نفسه بطلًا يخشون بأسه. وفيما يظن أنه يحطم الآخرين، إنما يحطم نفسه، ولا يكسب في الدنيا والآخرة.

إنه مثل التلميذ المشاكس في الفصل الذي يظن أنه يكون ظاهرًا يُتعِب المدرسين ويضايقهم ولا يحترمهم، ظانًا أن هذا جرأة وقوة شخصية! وغالبًا ما يرسب هذا التلميذ، وينجح زميله الهادئ... مسكين هذا الذي يرى نفسه مقاتلًا بينما هو يحطم نفسه!

والعجيب الهدم أسهل من البناء وأسرع. وكما يقول المَثَل العالمي: "البئر الذي يحفرها العاقل في شهر، يردمها الغبي في يوم"! سهل أن عمارة

من عشـرين طابقًا يهدمها أحد الأشـرار في لحظات، بقنبلة! ويبقى البناء هو العمل المجيد... أمَّا الهادمون فلا يهدمون سوى أنفسهم!

* نوع آخر يحبون أنفسهم محبة خاطئة، بمنحها الحرية في كل شيء! يريد الواحد منهم أن يعمل ما يشـاء، متى يشـاء، كيفما يشـاء!! محاولًا أن يتخلَّص من كل سُلطة وكل نظام وكل قانون! ويرى أن التقاليد قيد عليه، ولا يقبل التوجيهات أو النصائح. بل يقول: "أنا حُرّ. لا أقبل تدخلًا في حريتي"! بينما لا يدري المعنى الحقيقي للحرية من حيث هي تحرُّر من كل خطأ ومن كل نقص... أمَّا ما يدَّعيه من حرية، فإنه يقوده إلى الضـياع، وهناك فرق كبير بين الحرية والتَّسـيُّب ... الذي يفقد فيه الشـخص فضـيلة ضـبط النفس...

* يُذكِّرنا هذا بالوجوديين الذين يجدون أنفسـهم بالتَّحرُّر من اللَّه ومن وصاياه. وشعار الواحد منهم "من الخير أن اللَّه لا يوجد، لكي أوجد أنا"!! في شعور أن اللَّه يقف ضد نزواتهم وشهواتهم.

ومن أخطر أنواع الحرية في الفكر الديني افتخار البعض بأنه صـاحب فكر جديد في أمور الدين وهذه الحرية المنحرفة كثيرًا ما قادت البعض إلى الإلحاد، أو إلى تكوين مذاهب خاصـة! وأكثر من هذا، محاولة أولئك جذب الآخرين إلى فكرهم.

* هناك أشـخاص آخرون يريدون أن يبنوا أنفسـهم عن طريق مجد خاص بالغنى والمركز والشهرة وبعض المظاهر الخارجية، بينما المجد الحقيقي للذات هو في نقاوتها وحكمتها وقداسـة سـيرتها... ولكن المظاهر الخارجية لا تبني النَّفس مُطلقًا، كما لا تصحبها في الأبدية.

* البعض يحاول أن يبني نفسـه بأن يبدو بارًا وبلا خطأ في أعين الناس. وهكذا يغطي أخطاءه بتبرير الذات والتماس الأعذار في كل سـقطة! وفي هذا الدفاع عن النَّفس، لا مانع عنده أحيانًا من الكذب أو الرياء أو إلصـاق السبب بالآخرين! فيرتكب أخطاء أخرى. بينما الوضع الروحي لبناء النَّفس هو تنقيتها من الأخطاء، وليس التغطية على أخطائها.

أخيرًا أقول إنه من العجب أن يحاول البعض أن يثبت وجوده بطريقة تلغي وجوده أو تقلل من شأنه.

مركز معلم الأجيال
لحفظ ونشر تراث
البابا شنوده الثالث
بكنيسة السيدة العذراء بالإسكندرية